الأقلام

مجلة فكرية عامة تصدرها وزارة الإعلام - بغداد

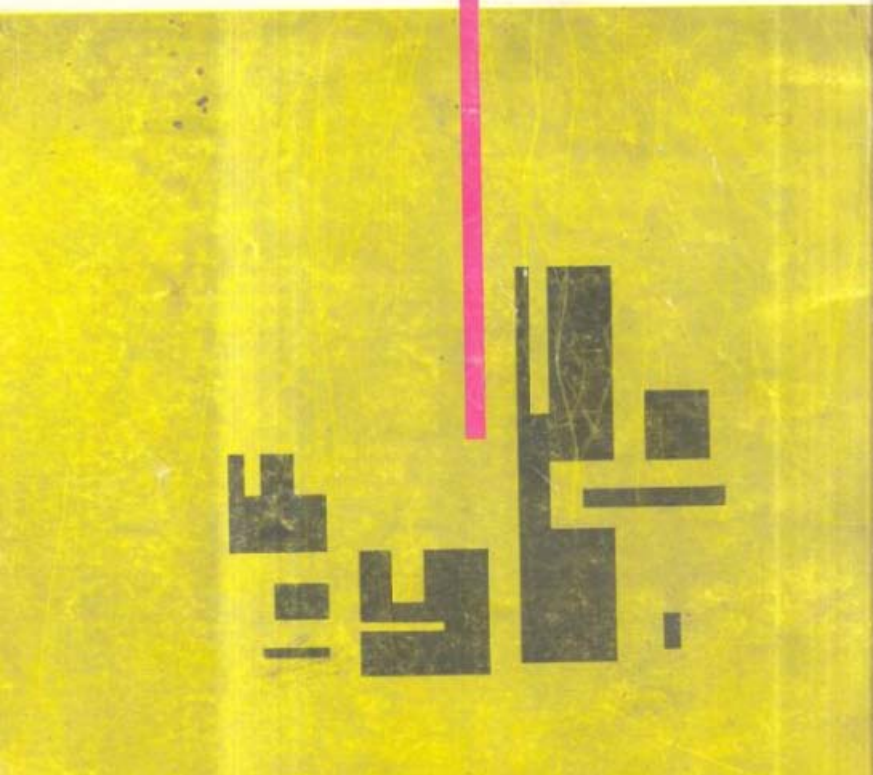

العدد ٢ السنة التاسعة ١٩٧٣

النهر العظيم

عبد الكريم غلاب

رفع رأسه الى السماء باحثا عن غيمة ...

ارتد بصره حاسرا في يأس كأنما لم تكتحل عيناه بزرقة السماء الصافية .

احتدت أعصابه وهو يتسمع الى هاتف يهتف به :

ـ سماء جميلة هادئة وديعة تتوق لها نفوس الشماليين والغربيين والشرقيين ، عاشوا تحت ثقل السحب والغمام والغيم والظلمة ... افتح نفسك للنور الازرق في سمائك الوديعة ...

اجاب كأنما كان يتحدث الى شخص اثار اعصابه :

كرهت الهدوء والزرقة الحالمة والضياء المخدر ... من لي بسمائهم المرعدة المبرقة الصاخبة المثيرة ...؟

اختنق ... لا يستطيع ان يضيف ...

ثارت اعصابه في تمزقها ، وهو يتسمع باذنيه الى حفيف الشجر ، فلا حفيف ... الى عويل الرياح ، فلا عويل ... الى هبات النسيم ، فلا نسيم ... الى زفزفة الطيور ، فلا نأمة ولا هفهفة ... الموت يحيط بكل ما حوله كما لو كان الناجي وحده من طوفان نوح ...

اكفهرت دنياه امام ناظريه ، فلم يعد يرى في النور غير ظلمة الليل . ولم يعد يأنس بسماء او بحن الى ارض حتى تراب الارض ، وكان عهده به اسمر متفتحا ، حال لونه وغاضت الابتسامة من حياته . انكمش وتضاءل وهو يستحيل الى رماد جفت عناصر الحياة فيه .

انطلق يبحث عن مفره لا تطيق غضبه الارض ، ولا يرتفع به الى سماء ...

ترك المدينة ، وقد ضاق بجدرانها السميكة الثقيلة ، عالما على وجهه ، يسير فوق الاعشاب التي فاضت منها الحياة فاستحالت الى رماد ، يبحث بعينيه عن اصائل الزرع ، عن بواكر الربيع ، عن خضرة الاغصان .

تسرب الى جسمه الوهن . جلس في يأس ، في العراء تحت شمس مرهقة . لم تعد عيناه تطيقان النظر الى بعيد ، كانت الاشعة اللافحة تحجب الرؤيا عن ناظريه ، كره ان يرفع رأسه الى السماء ، حزن وهو يعود بعينيه الى الارض ، الى التراب الرمادي . استحالت الارض الى شقوق ، كما لو كان زلزال قد مر من هناك . ديدان ، حشرات ، نمال تنطلق من باطن الارض تبحث عن غذاء ... لا تجد ... تشيع فوق الارض وبين الناس العفن والمرض ... تنتشر ظلالها المرضية كما لو كانت سحبا تسوقها الرياح الى كل مدينة ، وكل قرية ، وكل منزل او كوخ .

لفظته الارض كما لو كانت هي الاخرى لا تطيقه ، هرب من شقوقها وديدانها وحشراتها وعفنها الى حيث لا يدري وانما على هام وجهه يبحث عن شيء عن الناس الذين يعمرون القرى ، الذين يخدمون الارض ، يشقونها بالمحراث يبذرون الحب املا في نتاج ، عن العصبة الذين يرعون الشياه والابقار ، عن الذين يروحون او يغدون من عمل يركبون الحمير او البغال او على ارجلهم ... خلت الحقول من روادها وعمالها . كلهم فروا من وقدة الشمس اللافحة ... كلهم كرهوا ان تتعلق اعينهم بسماء لاحد لزرقتها الكاذبة . صفاؤها الناعم يحمل الموت كما تحمل الحية الرقطاء الناعمة الطعس ، خلقت الحقول من الانسان ليترك المجال للحشرات والديدان والنمال والعفن .

انطلق يسير على غير هدى .

توقف « هذا مكان اعرفه » هنا كان عريش تظلله اغصان خضراء « كان به ظل » جفت الحياة من اغصانه . تهاوت ، تساقط العريش ... لكني مازلت اعرف المكان . به عين ثرة ، صاف ماؤها ، غزير ، يعزف موسيقى ، كانت

ترددة جنبات العريش ملجأ للقاطنين والعابرين يرتوون منه ، يطفئون غليلهم في العين الباردة ، يرون في صفائها وجوههم السمراء وهم يمتحون بأكفهم من مائها العذب ، يلمس وجوههم مازها فيعيد اليهم الشعور برهافة الحياة ونظافتها . يظللهم العريش فيحسون ان هناك شيئا اسمه الظل الوارف .

تقدم تحسو العين ولم يخطىء حدسه مكانها ، ولو تهاوى ما تبقى من العريش ومادا على جنباتها . لزاح بقايا الاغصان المحترقة تبحث بداه عن البلل ، عيناه تتطلعان الى الماء ، اذناه تتسمعان الى هديره ، شوقه متعلق بقطرة صافية من العين الثرة ، اللهب في قلبه وجسمه جميعا يحن الى ارتواء ...

هنا كانت عين باردة مازها صاف غزير ... وكان عليها عريش ...

ارتد على اعقابه يسير على غير هدى ، يعشى عينيه الضوء اللاهب ، يتراءى له السراب بعيدا ، يقترب ، لم يقترب كما لو كانت قدماه ستغوصان في اوحاله ... طريق اعرفه كان بحرا من خضرة ، فاكهة ، وعنبا ، وقمحا وشعيرا ، واعشابا نضرة ... لم يعرف هذا البحر الخضم السراب . الان يضج فيه السراب . مات فيه الزرع والضرع ليفسح المجال للرمال ...

ارتطمت قدماه . ظنها صخرة عراها المحل فانتصبت قائمة تعترض طريق المارين . كاد يتبطح ارضا لو لا ما كان به من قوة اندفاع . افتك قدمه بعنف تلفت ليراها رقطاء ملساء تسبح في تمهل ، تتثاءبت او لعلها حاولت ان تنفث سمومها فافلتت منها قدم بضة كادت تعانقها في ترحاب ...

حتى انت خرجت لبحثين عن صيد ... ؟

كذلك تحدث اليها وهو يهم ان يحطم راسها بصخر عتيد ، انتابته رعشة . وقف بعيدا يفكر ويتحدث الى نفسه :

احطم راس هذه ؟ هي رؤوس اينعت كلها تتثاءب في صمت ، تحاول ان تنفث ... احطم واحدة منها ...؟

وانسل الصخر العتيد من يديه ليعود الى الارض الصلبة في سلام ، وما زال يحدق في الرقطاء الجميلة تتثنى في دلال ...

انطلق يسير على غير هدى .

قدماه تعرفان الطريق . لم تستعينا بفكره الشارد ، قادتاه الى المكان الذي يعرفه جيدا ، يحبه ، يحن اليه كلما هزه التشوق الى هديره وزبده ورشاشة ومسيرته الابدية ... الى الاغصان على حافتيه ترعيان طريقه الممهدة ، الى الظلال الوارفة تلثم اقدام النهر العظيم .

اجهده السير ، يرح به الشوق وهو يخطو خطواته العريضة تحت شمس لاهبة . توقف مشدوها . انحسرت المياه عن النهر العظيم ... تنات الصخور الجافة والرمال الهشة . نفايات تركها السيل وهو ينسحب في بطء ... اختفى الماء ، اختفى الظل . كشف النهر العظيم عن اعماقه، عن الوادي غير العميق وقد ترسبت فيه الصخور النفايات. واليؤس .. تعرى النهر العظيم عن عظمته ، كما لو كان عزيز قوم ذل ، احنى هامته للجفاف ، وقد كان منبع العطاء لكل حي مانت فيه الحياة ...

ابتسم . كان الكارثة التي زحفت على الارض والزرع والشجر والماء تبعث على ابتسام ساخر لكن النهر الذي كان يبدو عميقا صاخبا ترا غنيا قد تعرى . اصبح يدعو الى ابتسامة ساخرة ... من الحياة اسخر ، لست شامتا ولا ناقما . الحياة لا تدعو الى اطمئنان ...

انطلق يعود على غير هدى .

من الحقول والاغوار والارض الرملية التي كانت في يوم ما اصيص ورود وزهور وظل وياسمين . على بوابة المدينة التقى بعيرين انطلا فيها النور . انسعت حدقاتها في الوجوه المصفرة الناطقة في صمت، الشفاه التي لا تتحرك تتحدث بمالا تستطيعه لغة الحديث ... الخطوات النشيطة اصبحت بطيئة ، بطيئة ترهق الاقدام التي جمدها اليؤس . ومع ذلك تسير ...

تجول في المدينة يبحث عن الرجال الذين يعرفهم . الصمت يخيم على المدينة وكان يعرفها متحركة صاخبة حية ... لم يعد يعرف المدينة التي عاش فيها صباه وشبابه ورجولته .

كاد يبتسم ساخرا . خيل اليه ان جدران المدينة تبتسم ساخرة من يأسه ...

انطلق يسير ، يحدق في العيون الضارعة والوجوه المصفرة . يرصد الخطوات البطيئة . يحاول ان يتحدث فلا تستجيب له اذن ولا فم . ولكنه يفهم عن الصمت المطبق . ادرك : الرفض ، الغضب ، العزم ، السخرية ...

يسخرون ... ؟ ممن يسخر هؤلاء الذين روعهم الواقع ؟

جاءه الرد صامتا : من هذا الواقع يسخرون ...

استمر يسير هو الآخر بخطوات بطيئة متعثرة ، لكنها عنود ... بهت الضوء امام ناظريه . غامت الاشعاعات المثيرة . رفع عينيه الى السماء في فضول ، لم تعد زرقتها صافية ، بقع رمادية تسبح في البحر الازرق ، غيم ...

غيم ... ؟ اتراه غيما كاذبا ... ؟

وانطلق الامل يراوده : غيم ... سحب كثيفة ... رياح ... عواصف هوج ... برق ... رعد ...

غضبة السماء ... مطر ينهمر ... وتخضر الارض ويبتسم الربيع ... وتتفرج الوجوه العابسة عن الامل..

رفع راسه الى السماء . تراجعت عيناه الى الارض القاحلة : فيم كاذب دفع بي الى اسطورة الامل ...

ضحك ساخرا من الطفل الذي حل فيه وهو يرى الغيمة الضائعة في القبة الزرقاء .

واصل سيره البطيء الحثيث لا يدري الى اين ، ولا يعرف اين سينتهي به المطاف ، ولكنه يسير متعثرا بطيئا .

خلف النقاب بدا له وجهها مضيئا كما لو كانت النكبة لم تطرق باب منزلها . عيناها خضرا وان ، وما تزال الحياة تشع فيهما . طافحتان بالبشر . جذابتان ! ماتزال فينا بقية من حياة تنجذب نحو عينين جميلتين ... ! خضراوان ! الخضرة ما تزال في عالم الالوان الحية الطبيعية ... تراها خرجت الى شوارع المدينة تتحدى ؟ ام لعلها خرجت تزرع الامل ، وتدفدغ الشفاه الكالحة ان تبتسم ؟

تخطته العينان الخضراوان ، كانتا تسيران في الاتجاه المعاكس استمرت خطواته البطيئة المتعثرة . اظلم الجو . انحرفت الشمس قليلا عن كبد السماء . لم تمل بعد الى الغروب . لفت المدينة سحابة كثيفة . لم يعد يتبين الوجوه في صفرتها . اصبحت وجوها رمادية فيما بدت لعينيه وقد عشيتا ، رفع عينيه الى السماء . لم تعد تلك التي يعرف ، ضاعت زرقتها في تلاطم السحب ، لم تكن كاذبة الغيمة الطليعة البشري . عاوده الامل . احس ان عضلات وجهه تنطلق وقد كانت مشدودة في توتر . خطواته اصبحت اكثر سرعة ، لم تعد قدماه تتعثران ، موجة باردة من ريح رخاء تهب . غسلت عينيه ، وجهه جميعا لانت بشرته . ذكر العين الجافة التي كانت في يوم ما ثرة غنية . كان يغسل فيها عينيه ووجهه جميعا فترتاح نفسه لبرودتها وصفائها .

سار في خطواته القوية المتواصلة . عصفت الرياح بالشارع تحمل النفايات والتراب ، لفحت وجهه بعنف ، اغمض عينيه يتقي التراب والقذى وما تحمل الرياح ... لمع برق راى من خلاله العينين الخضراوين تعودان في تحديهما المطلق ... زمجر رعد ، هزم الصمت المطبق الذي شمل المدينة . اذني الفت الكسل . لم يطرق بابها صوت ... منذ متى ... ؟ نسيت كيف تعد الايام والاعوام ... كيف يقدر التاريخ ...

ابتسم ... كانت بسمة امل هذه المرة .

قطرة ماء تلفح وجهه مع الرياح ، رفع راسه الى السماء . ظل معلقا بالسماء كما لو كانت هي الامل .

لم يعد يكرهها . اختفت الزرقة الصافية التي كانت تثير اعصابه ، تبعث فيه الياس ... ود لو طار فعانق السحب المكفهرة ، ظلت انظاره معلقة بالسماء وهو يسير لا يعرف موقع خطواته ، قطرة اخرى تحملها السماء الى عينيه ، اغتسل جفنها ، صفت نظرتها ، عاد الى طفولته الاولى : اخرج لسانه كما يفعل الاطفال ليتلقى القطرة الثالثة ، لذيذة هي القطرات الطليعة من مطر ننتظره في شوق ...

انفتحت عيناه على ابعادهما وهما تشهدان سوط برق يفجر السحب المتكاثفة ، بدات القطرات تاخذ طريقها من السماء الى الارض اخذت خطواته تسابقها في اصرار، حيوية ، عناد ... اتجهت قدماه تلقائيا نحو بوابة المدينة، لم يسأل نفسه : الى اين اسير ؟ ولكنه سار يتبع قدميه في تلقائية ، انفجرت السماء فوق راسه ، ولكنه يسير ، ابتلت ثيابه وهو يسير . نفذ الماء الى جسمه فاقشعر ، ولكنه دافيء ينضح عرقا : غاصت قدماه في الوحل ، كان يقتلعهما في عنف ويسير موعده مع العين الثرة الغزيرة الصافية . اطل عليها في شوق ، السيل بدا يغمرها ، ماء وطين وهدير ... سينبع الماء الصافي بعد ان يغور ، سيرتد الى سطح الارض بعد ان يتجول في اعماقها ، ستشربه باردا نظيفا نقيا صافيا ، سينمو العريش ويخيم ليحمي العين الصافية ان تتلوث ...

انطلق يسير يتحدى الرياح الهوج والعاصفة الرابدة المبرقة ، والسيل العرم ياخذ طريقة من سماء الى ارض لا يعرف اين تسير به قدماه ، لكنهما تعرفان الطريق . موعدهما مع النهر العظيم . توقفتا في ظل بقايا شجرة ، كانت الحياة قد فاضت من اغصانها ، ها هي ذي تبتسم، ستذوق طعم الحياة مرة اخرى . على الشاطيء ، لم يكن شاطئا فترة طويلة ، عاد اليه معناه ، اعتباره ، الهدير اخذ ينعش الاذن المشوقة . السيول تعد النهر العظيم بزاده . المياه الضاحكة الصاخبة تجرف الاحجار والصخور والنفايات ، حياة طافحة مزدهرة بالنعم الذي لم يعد حزينا ...

سار النهر العظيم في طريقه ينعش الحياة في الجبال والسهول ، في المدن والقرى . يلمس بمعينه كل شجرة كل سنبلة ، كل نبتة ، يعطيها جميعا الحياة والخضرة وقوة البقاء . هديره يخترق الآفاق يضج الآذان . يعيد النور الى العيون المنطفئة، يعيد النضرة الى الوجوه المصفرة الكالحة ، يعيد الحديث الى الافواه المطبقة على الصمت.

النهر العظيم يخترق الافاق ليبشر بالحياة الجديدة.

الرباط ـ المغرب